﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعـــوة الـعـرب إلى تقليد أبيهم إبراهيم عليه السلام في التوحيد

لـمَّا ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله، ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه تذكيرًا للعرب بما كان عليه أبوهم إبراهيم عليه السلام من توحيد الله؛ ليقلّدوه في ذلك، إذ كانوا يقلّدون الآباء وليس في آبائهم مثله[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾: (أبو) أَصْلٌ يدلّ على التّربيةِ والغَذْوِ، وبذلك سُمّيَ الأبُ أَبًا، وفلان يأبو اليتيمَ، أي: يغذوه كما يغذو الوالد ولده[2]، ويُسَمّى كلّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا، ولذلك يسمّى النبيّ ﷺ أبًا للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: 6]، وزادوا في النداء فيه تاء، فقالوا: يا أبت[3]، فيقصد إبراهيم عليه السلام في الآية بقوله: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أباه آزر المذكور في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: 74].

2) ﴿يُغْنِى﴾: (غني) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ على الكِفايَةِ، والآخَرُ صَوْتٌ، فالأوّل وهو المقصود الغِنى في المال، والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ، وغَنيَ القَوْمُ في دارِهم: أَقاموا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِها، ومَغانيهُم: مَنازِلُهُم[4]، وصفة (غَنيّ) إذا وُصِف بها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 12/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(3) الراغب، المفردات: (أبو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

غير الله سبحانه جاءت بمعنى الغنى الماليّ للبشر، أمَّا ما كان صفة لله ﷻ فهو المالك لكلّ شيء، والغَنِيُّ عن كلِّ شيء، وهي بمعنى ما يرزق به خلقه في الدنيا والآخرة[1]، فيكون معنى ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ في الآية: لا يكفيك شَيْئًا في جلب نفع أو دفع ضر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكار الخليل ﷺ على أبيه عبادة الأوثان

قال إبراهيم ﷺ لأبيه آزر: يا أبت لأيِّ شيء تتقرَّب بأنواع القربات إلى ما لا يسمع دعاءك إنْ دعوْتَه، ولا يبصر عبادتك إن عبدته من الأصنام، ولا يدفع عنك ضرا ولا يجلب لك نفعا، فأيُّ حاجة لك إلى عبادته؟!

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بشاعة عبادة هذه الأصنام، وخطاب إبراهيم ﷺ لأبيه برهانٌ جليٌّ دالٌّ على أنَّ عبادةَ الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلًا وشرعًا، ودلَّ خطابُ إبراهيم ﷺ بتنبيهه وإشارته على أنَّ الذي يجب ويحسن عبادته مَنْ له الكمال، الذي لا تَنالُ العبادَ نعمةٌ إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمةً إلا الله تعالى[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة ﴿إِذْ﴾ في الآية:

اجتماع صفتي الصدّيقيّة والنبوّة في الخليل حين المحاورة

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بحرف ﴿إِذْ﴾، وهو هنا بدل من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل اشتمال؛ وقد فصل بين البدل والمبدَلِ منه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[4]، وجوَّز بعضُهم أن تكون ظرفية، فتتعلَّق بـ ﴿كَانَ﴾ أو بـ ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾، أي: كان جامعًا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 12.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 495.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 414.
(5) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 682.

معنى اللام في ﴿لِأَبِيهِ﴾:

دقة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ بحرف اللّام من قوله ﴿لِأَبِيهِ﴾، وهي تُسمَّى لام التبليغ، وهي مفيدة تقوية فعل القول عندما لا تكون حاجة لذكر المواجه بالقول، فإذا كان الغرضُ ذكر المواجه بالقول فاللّام حينئذ تسمَّى لام تعدية فعل القول[1]، وبعضهم يجعلها للسّببية، أي: لأجله[2]، والقول الأوّل أظهر.

نكتة النداء بوصف الأبوّة:

استعطافُ الأب لقبول نصيحة الابن الشّفيق

جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه بحرف النّداء (يا) مع أنَّ الحضرة مغنية عن النّداء؛ قصدًا لإحضار سمعه وذهنه لتلقي ما سيلقيه إليه، ثمّ توجَّه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوَّة إيماء إلى أنّه مخلص له النّصيحة[3].

بلاغة الاستفهام في الآية:

الإنكار والتشنيع على عبادة الصنم الوضيع

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ استعمال أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾؛ لنكتة بلاغيّة، إذ استفهم إبراهيم عليه السلام عن السّبب الحامل لأبيه على عبادة الصّنَم - وهو منتفٍ عنه السّمع والبصر والإغناء عنه شيئًا - تنبيهًا على شناعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف[4]، فهو استفهام مستعمل في حقيقته، ومَكْنِيٌّ به عن نفي العلّة المسؤول عنها بقوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملهما الاستفهام[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 240.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 115.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 268.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 114.

سرّ إيثار التعبير بالمضارع ﴿تَعْبُدُ﴾:

دوام أبي إبراهيم على عبادة الأصنام

عُبِّرَ بالفعل المضارع ﴿تَعْبُدُ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ دون غيره من الأزمنة؛ قصدًا لما يفيده المضارع من افتراض تكرّر الحدث وتجدّده واستمراره[1]، وفي ذلك دلالة على استمرار أبي إبراهيم ودوامه على عبادة الأصنام عندما خاطبه ابنه إبراهيم عليه السلام بهذا الخطاب.

معنى ﴿مَا﴾ في الآية:

مـاءات القرآن وأثرها في تحديد المعاني

التّعبير بلفظ ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾، ويحتمل في هذا السّياق أن تكون موصولة بمعنى (الّذي) أي: (لم تعبد الذي لا يسمع ولا يبصر..)، كما يحتمل أيضًا مراعاةً للسّياق أن تكون نكرة موصوفة، بمعنى (لم تعبد شيئًا لا يسمع ولا يبصر)[2].

سرُّ العدول عن (الصَّمّ) إلى ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾:

دوام عجز الأصنام عن استجابة الدعاء

عَدَلَ النّظم القرآني في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ عن التعبير بلفظ (الصَّمّ) إلى عبارة ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾؛ قصدًا إلى ما تفيده صيغة المضارع من الدلالة على الدّوام والاستمرار، بمعنى دوام عجز الأصنام عن سماع دعاء من يدعوها، والدعاء هو العبادة، فإذا لم يسمع الوثَن دعاء الدَّاعي، فأيّ منفعة في عبادته؟!.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ على ما قبلها:

زيادة النّكران على عبادة الأصنام

عُطفت جملة ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ على جملة ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ زيادة في الاحتجاج على بطلان عبادة الأصنام، فهي عاجزة عن سماعِ مَنْ يَعْبُدُها أو إبصارِ تَقَرُّبِهِ إليها، فإنّها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميّز مَنْ يُطيعها عمّن يَعْصيها، فأيّ فائدة في عبادتها؟[3].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 268.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 543.

فائدة التعبير بالمضارع في ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾:

دوام عجز الأصنام عن الإبصار

جاءت عبارة ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ بصيغة المضارعة قصدًا لما تفيده من الدّلالة على الدّوام والاستمرار، بمعنى دوام عجز الأصنام عن إبصار من يعبدها وإبصار قرباتهم إليها، وإذا لم تبصر تقرّب من يتقرّب إليها، فلا منفعة تُرجى من عبادتها.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ على ما قبلها:

الإمعان في بيان عجز الأصنام وسفاهة أحلام من يعبدها

عطفت جملة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ على عبارة ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ في الآية؛ إمعانًا في إظهار عجز الأصنام التّام عن جلب أدنى نفع أو دفع أدنى ضرر، فإذا كانت هذه الآلهة لا تنفع ولا تضرّ، فلن يحصل عابدها على أي نعمة، ولن يخاف أي نقمة منها، فتبطل عبادتها أصلًا تبعًا لذلك.

بلاغة النّفي بـ﴿وَلَا﴾ في الآية:

عجز الأصنام مطلَقٌ في كل الأزمنة

ورد النّفي بـ﴿لَا﴾ دون (لم) في الأفعال الثلاثة ﴿لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي﴾ لأنّ النفي بها مطلق في الأزمنة، لإفادة عجز الأصنام مطلقًا، في حين أنّ النفي بـ (لم) يفيد فقط النفي في الماضي، فهي تقلب المضارع إلى الماضي، دون التعرض للنفي في الحاضر والمستقبل.

دلالة التعبير بصيغة المضارع المنفيّ:

عدم استحقاق العبادة لدوام العجز

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ بصيغة المضارع المنفيّ في ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ و﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ و﴿وَلَا يُغْنِي﴾، دون غيره من الأزمنة لما يفيده المضارع من افتراض تكرّر الحدث وتجدّده واستمراره[1]، وفي ذلك دلالة على دوام عجز الأصنام عن السّمع والبصر والنفع والضرّ، ولازمه

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

التّنبيه تعريضًا على عدم استحقاق العبادة، فالإنسان الذي يسمع ويبصر أفضل ممن كان عاريًا عن ذلك، لا يسمع ولا يُبصر، فكيف يليق بالأفضل عبوديّة الأخسّ[1]؟.

سرّ تقديم ﴿عَنكَ﴾ على ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

اهتمام الخليل عليه السلام بنجاة أبيه

قُدِّمَ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ عن المفعول ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ لنكتة بلاغيّة وهي الاهتمام، فالأصنام لا تغني عنه ولا عن غيره ولا عن نفسها شيئًا، فضلًا عن باقي المخلوقات، غير أنّه قدّم والده بقوله: ﴿عَنكَ﴾؛ اهتمامًا بأبيه لشدَّة قربه منه وفَرْطِ حرصه على نجاته.

دلالة إفراد لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وتنكيره:

من عجز على القليل عجز عن الكثير من باب أولى

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ منكَّرًا مفردًا، والغرض البلاغي من التنكير فيه والإفراد هو التّقليل، بمعنى أنّ الأصنام لا تنفع ولا تضرّ ولو أقلّ شيء، كما أنَّ كلمة (شيء) لتوغُّلها في إبهام جنس ما تضاف إليه أو جنس الموجود مطلقًا مفيدة للتقليل غالبًا، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: 20][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأب والوالد:

خصوص الوالد بالسبب المباشر، وعموم الأب في الأجداد

يتّضح الفرق بين لفظي (الأب) و(الوالد) من حيث الدّلالة اللغوية في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالأب في اللّغة: سبب وجود الشيء أو إصلاحه، أو ظهوره، وسمّي الأب أبًا؛ لأنَّه يقوم على إصلاح الأبناء ورعايتهم بالتربية والغذاء، وأمَّا الوالد في اللّغة: فهو الأب المباشر، الذي هو سبب وجود الابن، فالوالد خاص، والأب عام.

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 74.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

كما يتَّضح الفرق بين اللفظين في الاستعمال القرآني لهما، حيث يراعي ما لكل منهما من ملامح دلاليّة خاصّة، فالأب يطلق على الأب المباشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: 4]، كما يطلق على الجدّ وإن علا، نحو قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجّ: 78].

وورد مجموعًا للدّلالة على سلسلة الأجداد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: 170]، وهذا الاستعمال القرآني مرتبط باتّساع الأصل اللغوي لكلمة (أب)، وشمولها لكل ما كان سببا في وجود الشيء أو رعايته أو ظهوره.

أمَّا (الوالد) في الاستعمال القرآني فقد اقتصر على معنى الأب المباشر الذي هو سبب وجود الابن، وفي أكثر المواضع جاء في صيغة المثنى (وبالوالدين)؛ إيماءً إلى أنَّ الأنثى هي الوالدة على الحقيقة، وألحق بها الأب؛ لأنّه السبب المباشر في وجود الابن، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، واستقراء الآيات الّتي ورد فيها لفظ (الوالد - الوالدين) يدلنا على دقة التعبير القرآني؛ إذ إنَّ الوالد هو الأب الأدنى (أي المباشر) دون غيره، وقد استُعمل في سياقات تقتضي قوّة الرَّابطة والعاطفة، نحو قول الله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: 33]؛ فقد تضمّنت الآية نفي النفع والشفاعة بأبلغ وجه، فكأنّه قيل: لو شفع للأب الأدنى الّذي ولد منه لم تُقبل شفاعته، فضلًا عن أن يشفع لمن فوقه، ولم يَرِدُ الوالد مجموعًا في القرآن الكريم، وفي هذا قرينة على أن هذا اللفظ مقصور على الأب المباشر دون غيره[1].

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 25.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»